المستشرقون

وخطرهم على العقيدة والفكر الاسلامي

الأستاذ لخضر بن بوزيد لخضر

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر

الملخص:

الدراسات الاستشراقية هي جميع الدراسات التي تَمَّت من طرف الباحثين الغربيين على العالم الإسلامي، ولا سيما الدراسات الدينية. تطور الاستشراق في القرن التاسع عشر بشكل متزامن مع التوسع الاستعماري والمد التّنصيري في العالم الإسلامي، الأمر الذي يثير الشكوك حول الدور الحقيقي الذي قام به المستشرقون في خدمة التبشير والاستعمار.

رغم الجهود الجبّارة التي قام بها المستشرقون، إلا أن أعمالهم كانت مليئة بالأخطاء المقصودة وغير المقصودة، وفي بعض هذه الأعمال نجد الكثير من التحريف والطعن في العقيدة الإسلامية من قرآن وحديث وتاريخ إسلامي.

بعض منهم خاصة اليهود أظهروا عداءهم للإسلام من خلال أعمالهم، على أن هناك من كان موضوعيا في دراسته فقد كان هدفه علميا محضا، وبعضهم دخل في الإسلام.

المستشرقون وخطرهم على العقيدة والفكر الاسلامي

مفهوم الاستشراق

الاستشراق في اللغة يعني الاتجاه إلى الشرق، وأقرب كلمة إلى الاستشراق هي التَشْريقُ فقد جاء في مختار الصحاح أن التَشْريق هي الأخذ في ناحية المَشرِق، يقال: شتّان بين مُشرِّقٍ ومغرِّبٍ[1]، وجاء في القاموس المحيط: التَّشْرِيقُ هو

الأخذ في ناحية المشرق، وشَرّقوا أي ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق[2].

وقد عرفه محمد فتح الله الزيادي بأنه: «مصدر من الفعل السداسي استشرق: أي طلب الشرق»[3].

وفي المعجم الوسيط: شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقاً: طلعت، واسم الموضع: المشرق، وشّرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق[4]، وفي الحديث: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَتَيْتُمُ الْغَائِطَ فَلاَ تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلاَ بَوْلٍ، وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»[5].

ويعرف بعض الباحثين الاستشراق على أنه: «تعبيرٌ أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين، شعوبهم وبلادهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وحضارتهم وكل ما تعلق بهم»[6]، وهو يعتبر نمطاً من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه[7].

وهو قد يكون أسلوبا غربيا لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في الشرق، بدراسة علوم وآداب وديانات وتاريخ شعوب الشرق للسيطرة عليه[8].

لكن المستشرقين قاموا بدور مشبوه في الدراسات التي كانوا يقومون بها، وهنا يذكر الشيخ محمد الغزالي أن الاستشراق يعتبر كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد، وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه[9]».

فللاستشراق أثر في الفكر الفلسفي العربي والإسلامي إذ يكاد لا يوجد مجال من مجالات الإسلام إلا وخاض فيه المستشرقين، فقد نشروا عن الإسلام والمسلمين فكرة مغلوطة ووصفوهم بأبشع الصفات، وغرسوا ذلك في أفكار الأوربيين، وهذه الأفكار نجدها اليوم مجسدة في أفلام السينما[10].

دوافع المستشرقين وأهدافهم

الأفكار التي تبثها الكنيسة في عقول الأوربيين عن الإسلام كانت

أفكارا معادية، فقد اعتبرته ديناً محرفاً يستمد أصله من اليهودية والنصرانية، وأن علومه وأفكاره تعود في أصلها إلى الإغريق، بل اعتبرته مسيحية في أسوء صورها أو مسيحية مشوهة، وبفضل انتشار هذه الأفكار بين الأوربيين تنكروا للإسلام الذي كان له الفضل في إخراج أوربا من العصور المظلمة، وقد جاء وصف الإسلام في فرض الكهنة في تاريخ بيزا: «دين محمد الهمجي والسكير الذي من نصيبه جهنم عقاب له على سيئاته، هو دين خدام الشيطان والمؤابين الأنجاس الذين يرددون آيات الرسول ويكثرون من التجذيف على ملكة السموات مريم».

وقد كان الاستشراق في البداية يخدم الأغراض الدينية، فقد بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة، ويذكر في هذا الإطار مصطفى السباعي أن الدافع الديني كان هو أهم دافع للمستشرقين، فقد كان هدفهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه، فوصفوا المسلمين باللصوص وسفاكي الدماء، وأن سعيهم إنما هو لإرضاء ملذاتهم الجسدية[11].

وكان هدف الكنيسة من وراء ذلك هو التبشير، وهنا يذكر يوهان فوك أن فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي حول انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربية، وذلك بعد أن تلاشى الأمل بتحقيق نصر نهائي بقوة السلاح، ومن المفترض أن حملات التبشير النصرانية كانت أحد أسباب بداية الاستشراق[12].

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي يجعل هؤلاء الباحثين لدراسة الإسلام كعقيدة، فهم لا يؤمنون به ولا يبحثون عن الحقيقة من وراء دراستهم للإسلام، ولم يكن هدفهم هو العلم وإلا لكانوا اختصوا في مجال آخر مثلما فعل غيرهم، لكن علماء اللاهوت هؤلاء ما فتئوا يبحثون عن كل نقيصة ومطعن في الإسلام، كما أنه من الغريب أن يشجع الأوربيون التبشير في العالم الإسلامي، مع أنهم يمقتون الكنيسة ويثورون عليها، فقد كان شعار الثورة الفرنسية عند اندلاعها: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر راهب». ومع أن

الساسة الأوربيون يمقتون رجال الدين، إلا أنهم مع ذلك نراهم يتعاونون معهم ويشجعونهم على التبشير في الشرق بما يخدم مصالحهم، ففي النهاية فأهداف الاستشراق والاستعمار والتبشير واحدة.

ومع أهمية الدافع الديني إلا أنه ليس الوحيد، فهناك الدافع التجاري للترويج لبضائع الأوربية والحصول على امتيازات ومكاسب اقتصادية، دون أن ننسى الدافع السياسي وهو الأخطر حيث إنه وبعد استقلال كل الدول الإسلامية، فإن الأوربيين ظلوا على اتصال بالمفكرين والقادة السياسيين والصحافيين عن طريق الندوات والحفلات التي يقيمونها، كما أن السفارات أصبحت تضم ملحقين ثقافيين، وبهذه الطريقة تم التعرف على خبايا كل بلد.

وقد تجلّى خطر المستشرقين على العالم الإسلامي في خدمتهم للاستعمار، فقد تعرفوا على البلاد الإسلامية، من خلال دراسة عادات وعقائد وأخلاق المجتمعات، كما تعرفوا على مختلف أقاليمها وثرواتها لتحديد نقاط القوة والضعف، وعندما تم لهم ذلك راحوا يعملون على إضعاف المقاومة، بإيهام الناس أن الاستعمار قضاء وقدر، فشجعوا بعض أدعياء التصوف ومنتسبي الزوايا، وسعوا لإصدار فتاوى تدعو إلى الاستكانة والاستسلام لقضاء الله، وهذا ما نلمسه في الدور الذي قام به ليون روش في الجزائر لصرف الناس عن مساندة ثورة الأمير عبدالقادر.

وأخيرا هناك الدافع العلمي فبالنسبة للذين لم يشتركوا في مخططات الكنيسة والاستعمار، فإن دافعهم كان علميا بحتا، وقد بذلوا قصارى جهدهم في فهرسة المخططات والكتب، وهؤلاء استفادت منهم البلاد الإسلامية حيث كان تأثيرهم إيجابيا(13)، فلم يكن جميع المستشرقين يخدمون أغراض التبشير أو الاستعمار، بل هناك منهم من كان حياديا، وكان غرضه العلم، بل وهناك من أسلم(14).

والملاحظ أن دوافع الاستشراق تتلاقى مع أهدافه فإذا كان الدافع دينيا كان الهدف هو إخراج

المسلمين عن دينهم، فإن أمكن تنصيرهم فذاك المقصود وإلا فإبقائهم بلا دين مطلقا، وهذا يحقق لهم منافع ومصالح اقتصادية وسياسية واستعمارية[15]، فقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كامبردج عام 1636م نص صراحة على خدمة هدفين: أحدهما تجاري، والثاني تنصيري، فقد جاء في هذا القرار: «...نهدف إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون في ظلمات»[16].

وإذا كان الدافع استعمارياً فهو يهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي طمعا في استغلال الأرض واستعباد الناس والسيطرة على كل شيء، وإذا كان اقتصاديا فهو يهدف إلى تحصيل منافع اقتصادية واستغلال الأرض والسكان لخدمة الاقتصاد الغربي[17]، وربما كانت أفكار المستشرقين تتجه للأوربيين أيضا فهدف المستشرقين هو طرح الشرق أمام الغرب بصورة مشوهة، لتكوين صورة سيئة عن العرب والمسلمين في ذهن الغربي المعاصر، وذلك لحمايته من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به، ويحمل رايته ويجاهد في سبيله.

وكان هدفهم أيضا هو هزيمة المسلمين هزيمة روحية وفكرية، وذلك بالقضاء على روح الإيمان والاعتزاز بالإسلام في نفس المسلم، وإذابة شخصيته الإسلامية عن طريق غسل دماغه شيئاً فشيئاً، بأسلوب ماكر يعتمد على إخفاء النوايا الحقيقية والظهور بمظهر بريء لطيف، وقد اشترك المستشرقون في هذا الهدف مع الصهيونية والشيوعية.

وقد استعمل بعض المستشرقين بوسائل دنيئة للوصول إلى أغراضهم خاصة منهم أولئك الذين خدموا الغرض التبشيري أو الاستعمار، ونسوق هنا قصة ليون روش مع الأمير عبد القادر، فقد سمى نفسه الحاج عمر، والتحق بخدمة الأمير، ورافقه مدة طويلة ادَّعى خلالها أنه اعتنق الإسلام، ولما قامت الحرب

بين الأمير وفرنسا انشقَّ عنه والتحق بالسلطة الفرنسية، فكلفه الجنرال «بيجو» الحاكم العسكري للجزائر، بالسفر إلى تونس ومصر والحجاز حاملًا فتوى تدعو الجزائريين إلى قبول الحكم الفرنسي، مقابل أن يحترم هذا الحكم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم، وبعد أن عاد إلى الجزائر فنشر هذه الفتوى، وقد ساعده بعض من شيوخ الزوايا، عندئذ كتب الأمير عبد القادر رسالة عنوانها «حسام الدين لقطع شبه المرتدين» ونشرها سنة 1843م تنقض هذه الفتوى[18].

ومن أبرز وسائلهم أيضا الغزو الفكري فقد نشروا الثقافة الغربية في البلاد الإسلامية مستغلين انبهار المسلمين بالتطور الذي وصلته الحضارة الغربية، وكلما ابتعد المسلمون عن جذورهم ودينهم وثقافتهم كان ذلك في صالحهم، فسلاح التغـــريب من أخطر الأسلحة التي استـــخدمها الغرب ضد الشرق وقد اضطلع المستشرقون بهذه المهمة.

وبسبب السيطرة الاستعمارية بدأت المؤثرات الغربية تتغلغل في البلاد الإسلامية حتى غدا تقليد الغرب والتشبه بأخلاقهم وأسلوب معيشتهم واقتباس أفكارهم وآراءهم الاجتماعية والسياسية، أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الإسلامي، وقد ثبت في عصرنا ما أخبر به الرسول ﷺ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «**لَتَتّبِعُنّ سَنَنَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ. حَتّىَ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبَ لاَتّبَعْتُمُوهُمْ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ آلْيَهُودُ وَالنّصَارَىَ؟ قَالَ "فَمَنْ؟**»[19].

من أبرز الأمثلة على دور الاستشراق في نشر التغريب ما حدث في تركيا في عهد "مصطفى كمال أتاتورك" الذي قيل بأن أصله يعود إلى "يهود الدونمة"، فقد واكب المستشرقون حركته الداعية إلى تغريب تركيا حاضرة الخلافة، بالتشنيع على الإسلام واعتباره سبباً في انحطاط الشعوب الإسلامية، كما اشتد التبشير في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وقد ساند المستشرقون كل خطوات أتاتورك بالقضاء على أي صلة لتركيا

بالشرق، وكان قد نشر اللغة التركية بالحروف اللاتينية ومنع العربية والفارسية ونشر الثقافة الغربية في تركيا، ولتبرير أفعاله قام هؤلاء بأبحاث لغوية وتاريخية ليؤكّدوا على أن الأتراك من أصول غربية، فساندوا الأفكار القومية الطورانية لأتاتورك، والأصول المشتركة للغات الأوربية مع التركية وحاول المستشرقون إثبات صلة ''الحثيون القدامى'' بالشعوب الهندو. آرية[20].

ولم يقف هؤلاء المستشرقون عند حدٍّ في طعنهم في الإسلام فقد حاولوا ضرب العقيدة الإسلامية وبث الشكوك حول صحة رسالة الإسلام، ومن وسائلهم في التشكيك بصحة رسالة الرسول ﷺ ومصدرها الإلهي، إنكار النبوة والادعاء أن الدين الإسلامي مستوحى من اليهودية والنصرانية، والتشكيك في صحة الأحاديث النبوية وفي الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور العلمي، وفي قيمة التراث الحضاري الإسلامي وأنه منقول من الحضارة الرومانية واليونانية[21]، والسخرية من بعض الأحكام الدينية، كدعوى عدم مناسبتها لوقتنا الحاضر، وغير ذلك من مزاعم ذات أبعاد خطيرة.

ومن الأدوات التي استعملوها لتحقيق أغراضهم:

ـ تأليف الكتب حول القرآن والفقه والتاريخ الإسلامي وإصدار المجلات لنشر بحوثهم.

ـ إرساليات التبشير التي تقوم بأعمال خيرية في مجالات إنسانية مختلفة في الظاهر.

ـ إنشاء جمعيات ومدارس ومؤسسات من أجل العمل الخيري والاحتكاك مع الشباب في العالم الإسلامي.

ـ إلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية ومقالات في الصحف المحلية.

ـ عقد المؤتمرات لإحكام سيطرتهم ومناقشة الأفكار الجديدة.

ـ التركيز على الدعوات الهدامة والأفكار الخاطئة وبعض الفرق الإسلامية المخالفة لجمهور المسلمين، وكانوا يدافعون عنها

ويشيدون بأفكارها، فقد تركزت بحوثهم على المتصوفة والشيعة والخوارج، والمؤرخون منهم كانوا يقفون طويلا أمام الحوادث التاريخية التي تمثل انتكاسات أو ثورات أو أزمات مر بها العالم الإسلامي من أجل الطعن في الإسلام[22].

آراء المستشرقين في العقيدة الإسلامية

أ ـ اليهود والاستشراق

إن اليهود من أشد أعداء الإسلام وأكثرهم مكرا ودهاءً، فقد قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[23].

وقد واجهوا المسلمين بألوان من الكيد والتآمر والتأثير في المشركين والتأثير على المسلمين، واستخدموا وسيلة النفاق ضمن وسائلهم الكثيرة، ثم كان لهم في تاريخ الإسلام مكائد كثيرة.

ـ فمن مؤامرات اليهودي «عبد الله بن سبأ» التي نجم عنها صراع بين المسلمين ثم افتراقهم وظهور الخوارج والشيعة.

ـ ثم مؤامرات «ميمون القداح» الذي نجم عنها ظهور فرقة الباطنية.

ـ ثم مكايد يهود «الدونمة» ضد الدولة العثمانية، والمذاهب الهدامة التي نشروها بين المسلمين[24].

وقد كان الاستشراق من أخطر المجالات التي دخلها اليهود وبرز دورهم خصوصاً من خلال التشكيك في القرآن والسنة وفي صحة نبوة الرسول ﷺ، ثم التشكيك في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وقد دخل اليهود مجال الاستشراق بإخفائهم الدائم للديانة اليهودية وارتدائهم لأثواب مختلفة، فلقد ارتدوا ثوب الجنسية الأوروبية تارة، والنصرانية تارة وثوب الإسلام تارة أخرى لتحقيق أهدافهم الخبيثة.

ويعد "يوحنا الإشبيلي" أول المستشرقين اليهود واسمه الحقيقي هو "يوحنا بن داود" عاش في القرن الثاني عشر، وكان له دور في التنصير، فقد اعتنق المسيحية وأخفى اليهودية وقام بترجمة سور

من القرآن، والكثير من اليهود دخلوا الاستشراق من باب المسيحية أو بوصفهم أوروبيين، فقد كانت خدعة الإخفاء هي أهم ما استخدمه اليهود في صراعهم ضد المسلمين، ففي أحد بروتوكولات حكمائهم جاء ما نصه: «عليكم ألا تظهروا...، وألا تعرفوا الناس علينا...، عليكم ألا تستخدموا كلمة يهودي».

ويقول في هذا الإطار الأستاذ محمود حمدي زقزوق: «أنّ اليهودلم يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل أثرهم، ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين وبذلك فرضوا أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وحققوا أهدافهم من النيل من الإسلام وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية النصارى»[25].

ومن أشهر المستشرقين اليهود "صموئيل زويمر" هذا المستشرق الذي كتب عديدا من المؤلفات عن الإسلام، وهو مؤسس مجلة العالم الإسلامي عام 1911م وترأس العديد من مؤتمرات التبشير، ففي مؤتمر القدس التبشيري عام 1935م قال: «إن مهمة التبشير ليس الهدف منها هو إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية وتكريما لهم، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صله له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليه الأمم في حياتها»، ومن النصائح التي تضمنها كتابه "العالم الإسلامي اليوم" يقول: «إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسولاً من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها»، وكتب مخاطبا المستشرقين: «إنكم أعددتم نشأً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء طبقا لما أراده الاستعمار...».

ومن المستشرقين اليهود أيضا "فون جرونباوم" وهو مستشرق ألماني ألف العديد من الكتب الإسلامية منها: "الأعياد المحمدية"، "دراسات في تاريخ

الثقافة الإسلامية''، وقد امتلأت كتبه تلك بالافتراءات على الإسلام والمسلمين.

ومن اليهود أيضا ''جولد زيهر'' وهو مستشرق مجري يعتبر زعيم الدراسات الإسلامية في أوروبا، ومن أشهر مؤلفاته كتابه ''تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي''، الذي يعد أهم المراجع المعترف بها عند الأوروبيين، وقد ساند هذا المستشرق ''الفكر البهائي''، وقد حاول هذا الأخير الطعن في القرآن الكريم حيث ادعى أن هناك اختلافاً في النص القرآني[26].

ومن أخطر المفكرين اليهود ''جوزيف شاخت''[27] الذي حاول الطعن في الأحاديث النبوية وشكك في صحتها، وادعى أن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراض الجاهلية، وقد تتلمذ على يد ''جولد زيهر'' الذي يعتبر أكبر المستشرقين اليهود منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد كرّس حياته للطعن في الإسلام ونبي الإسلام وقرآن الإسلام.

وليس من قبيل الصدفة أن يكون من أكبر المبشرين وأخطرهم طوال النصف الأول من القرن الشرين هو اليهودي ''صمويل زويمر''، الذي كان يدير عملية التبشير في العالم الإسلامي كله ومعه عشرات المستشرقين والمبشرين من اليهود[28].

ولا شك أن نشاطات المستشرقين كان لها تأثير كبير في البلاد المسلمين، فقد تأثر بهم كبار القوم، بل إن بعض العلماء والمفكرين المسلمين قد تأثروا بهم، ومازالت أمتنا الإسلامية حتى هذه اللحظة تعيش آثار هذا الغزو الفكري الذي أحدثه الاستشراق والمستشرقون ولا سيما اليهود منهم.

ب - المستشرقون والقرآن الكريم

ادعى بعض المستشرقين أن القرآن مأخوذ عن النصرانية واليهودية، وأن الرسول ﷺ قد اقتبس أفكاره من الكتب السماوية السابقة، فقد ادعى المستشرق ''تيودور نولدكه'' في كتابه ''تاريخ القرآن'' أن القرآن في معظمه من

أصل يهودي، وسبب ذلك هو وجود جماعات من اليهود في يثرب كما أن اليهود كانوا يترددون على مكة أيضا[29]، مع العلم أن هذا المستشرق قد تتلمذ على يد "جولد تسيهر" و"سينوك هيروغرونيه" وكلاهما كانا يحملان حقدا على الإسلام.

ومن بين المستشرقين الذين طعنوا في القرآن الكريم أيضا "جون وانسبروغ John Wansborough" الذي ألف كتابا بعنوان "الدراسات القرآنية: مصادر ومناهج التفسير للكتاب الديني"، ذكر فيه أن القرآن تطور تدريجيا في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين من روايات شفوية حتى أخذ شكله الحالي، ويدعي أن ذلك صادف بروز التفاسير القرآنية، وقد اعتقد أن هذه العملية مماثلة لما حدث في تقويم الكتاب المقدس لليهود[30].

ومن أوائل المستشرقين الذين طعنوا في القرآن الكريم جوزيف شاخت وأستاذه جولد زيهر، وهذا الأخير امتدت أراءه إلى الحديث أيضا، بينما ذكر شاخت عن القرآن الكريم: إنه لم يكن مصدرا للشريعة الإسلامية قبل القرن التاسع عشر الميلادي[31].

وللإشارة فإن عددا من المستشرقين قد قام بترجمة معاني القرآن الكريم، ومنهم المستشرق الإنجليزي "جورج سيل" الذي عاش بين 1697 و1736م، وقد وضع مقدمة قال فيها: «إن محمدا ﷺ هو من ألفه وساعده أحد من حكماء عصره من بني قومه أو من اليهود والنصارى»[32].

وأول ترجمة للقرآن هي تلك التي قام بها "روبرت الكلوني" بأمر بها بطرس المحترم في القرن 12 الميلادي، والمترجم لم يكن أمينا فقد أغفل بعض المفردات بالإضافة إلى الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها، ثم قام روبرت كينت بمساعدة رجل عربي بترجمة القرآن، ثم توالت بعد ذلك الترجمات إلى مختلف اللغات، والمعلوم أن مشروعية ترجمة القرآن الكريم فيها الكثير الأخذ والردّ، فقد حدث حولها جدال كبير بين العلماء: كأبي حنيفة، والغزالي، وابن حزم، وابن تيمية، والزركشي، والسيوطي...[33].

ورغم أن الكثير من المستشرقين قد طعنوا في الإسلام من حيث أردوا أن يدرسوه، إلا أن بعضهم كانوا منصفين فقد ردوا على ادعاءات ''شاخت'' و''جولد زيهر'' حول القرآن الكريم، ومنهم المستشرق ''شيبس'' الذي قال: «إن بعض العلماء يعتقدون أن القرآن كلام محمد، وهذا هو الخطأ المحض فالقرآن هو كلام الله تعالى الموحى على لسان رسوله، وليس في استطاعة محمد ذلك الأمي في تلك العصور الغابرة أن يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ويهدي به الناس من الظلمات إلى النور...».

أما الباحثة ''لورا فيشيا فاغليري'' فتقول في كتابها ''دفاع عن الإسلام'': «كيف يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد وهو الأمي الذي لم يقل طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة لا ينم منهما عن أدنى موهبة شعرية»[34].

والجدير بالذكر أن الكثير من المستشرقين قد اهتموا بتفسير القرآن، وكانوا غالبا ما يتقصون كتب بعض الفرق الإسلامية كالشيعة والمعتزلة، حيث ألف المستشرق الإيطالي ''جويدي'' كتاب ''شرح المعتزلة للقرآن''، والمستشرق الروسي ''سيمينوف'' كتاب ''القرآن في نظر الإسماعيليين''، لكن الأكثر شيوعاً في هذا المجال هو كتاب ''مذاهب التفسير الإسلامي'' للمستشرق المجري جولد زيهر.

ج ـ المستشرقون اليهود والسنة النبوية

توجه المستشرقون إلى دراسات الحديث النبوي في وقت متأخر بعد أن أمضوا وقتا في الدراسات التاريخية والأدبية، ومن أهم وأخطر الدراسات هي التي قام بها جولد زيهر سنة 1890م وهي بعنوان ''دراسات إسلامية'' وقد أصبح بعد ذلك هذا الكتاب مرجعا للباحثين[35]، وقد اتهم فيه أبا هريرة والإمام الزهري بأنهم وضعوا الأحاديث وأن أمراء بني أمية استغلوا دهاءهم في إجبار الإمام الزهري على وضع أحاديث مغلوطة عن النبي ﷺ، وقد استغل رواية لابن عساكر[36]، وابن سعد وحملها لغير موضعها من أجل الطعن في

الأحاديث، فقد ذكر ابن عساكر أن هشام بن عبد الملك طلب من الزهري أن يملي على ولده أربعمئة حديث ليكتبها فيحفظها وأن الإمام الزهري كان يرفض كتابة الحديث من أجل أن يحفظها الناس في صدورهم، وعندما خرج من عند الأمير قال: ((يا أيها الناس إنا كنا منعناكم أمرا بذلناه لهؤلاء الأمراء وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث، فرأينا أن لا نمنع أحدا من المسلمين، فتعالوا حتى أحدثكم بها))[37].

وكان هدف هذا المستشرق من وراء ذلك الطعن في أعظم رواة الحديث، والطعن في صحة العقيدة الإسلامية القائمة على الكتاب والسنة، وأراد أن يشكك المسلمين في تاريخهم من خلال إتهام الدولة الأموية بتلفيق الأحاديث وتحريف العقيدة الإسلامية.

وبعد ذلك جاء مستشرق أخطر من "زيهر" هو "شاخت" الذي أمضى عشرة أعوام في دراسات الأحاديث والفقه الإسلامي، ونشر بحوثه في كتاب بعنوان "أصول الشريعة المحمدية"، الذي أصبح هذا الكتاب مرجعا للباحثين ونال شهرة واسعة، وكان خلاصة ما وصل إليه أنه ليس هناك حديث واحد صحيح خاصة الأحاديث الفقهية.

وتعتبر تأثيرات كل من "جولد زيهر" و"شاخت" عظيمة في المستشرقين، فقد وصف المستشرق "جب" كتاب "جولد زيهر" بأنه المرجع الأول للأبحاث عن الحضارة الإسلامية والتشريع على الأقل في الغرب.

أما نظرية شاخت التي وضعها في كتبه فقد أثرت في جميع المستشرقين ومنهم: أندرسون، روبستون، فيزجرالد، كولسون، بوزورت وغيرهم، بل وأثرت في الكثير من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية[38]، وكانت من نتائج طعن المستشرقين في الحديث النبوي، أن بعض المسلمين قد طالبوا بالاعتماد على القرآن فقط، فقد ظهرت طائفة في الهند تدعى"أهل القرآن" تنادي بعدم الاحتجاج بالحديث[39].

ولم يكتف المستشرقون بالطعن بصحة نسبة الأحاديث النبوية إلى الرسول ﷺ مباشرة بل طعنوا في شخص الرسول، ومن وهؤلاء وليام بدول William Bedwell الذي عاش بين 1516 و1632م، والذي ظهرت له كتابات امتلأت بالحقد على الإسلام والرسول ﷺ.

وينقل إدوارد سعيد عن نورمان دانيال في كتابه "الإسلام والغرب"، أنّ النبي محمد ﷺ ينظر إليه في الغرب بأنه نبيُّ الوحي الكاذب[40].

والمعلوم أن الحديث النبوي تعرض ولا يزال يتعرض لحملات مكثفة وهجمات وافتراءات ظالمة مستهدفة، هذا المصدر التشريعي المهم بالنسبة للمسلمين، لكن هناك من المستشرقين أنفسهم من انبرى دفاعا عنه، فهذا "موريس جودفري ديمونبنين" في كتابه "القوانين الإسلامية" قد قال عنه ما نصه: «هو المصدر الثاني للقانون الإسلامي، يبدو أنه إلى يومنا لا ينضب من المواد المسجلة لدراسة القانون... إنها وثائق في غاية الإمتاع والفائدة».

ومنهم أيضا "غوستاف جرونبوم" في كتابه "الإسلام في العصور الوسطى" قال: «إن المثل الذي يجب الاقتداء به هو النبي ﷺ، فالقرآن لا يورد التعليمات التفصيلية اللازمة لتطبيق نصوصه ومن أجل ذلك كانت سنة النبي ﷺ هي التي كانت تملأ الفراغ وتحوي التفصيل اللازم».

ويذكر الباحث إ. س تريتون في كتابه: "الإسلام عقيدة وعمل": «يعتبر محمد المثال الذي يجب أن يحذو حذوه المؤمنون، فالذين آمنوا بجد أرادوا أن يعرفوا كل تفاصيل حياته حتى يتسنى لهم إتباعه فالقوانين في القرآن لا تأتي التفاصيل الكافية لتنظيم الحياة في الدولة الإسلامية...، ومن هنا جاء الاهتمام بتدوين الأحاديث وجمعها وتبويبها»[41].

والكثير من الباحثين اهتدوا إلى الإسلام، كما فعل المستشرق الفرنسي "إتيان ديني" الذي عاش في الجزائر وتسمى بـ"ناصر الدين ديني"، والف كتاب عن سيرة الرسول ﷺ وكتاب آخر بعنوان

"أشعة خاصة بنور الإسلام"، وقد نقل جثمانه إلى الجزائر حيث دفن فيها بناء على وصيته.

ومنهم المستشرق المجري "عبد الكريم جرمانوس" الذي اعتنق الإسلام في الهند.

ومنهم "موريس بوكاي" الطبيب الفرنسي صاحب كتاب "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، والمستشرق الإسباني "سيمون هايك"[42].

ومن بينهم أيضا "مراد هوفمان" الذي ألف كتاب بعنوان "الإسلام كبديل"، والفيلسوف الفرنسي "رينيه جينو" الذي أصبح اسمه "عبد الواحد يحيى"، وهناك الكثير غيرهم ممن عرفوا الإسلام وتأثروا به.

والواقع أن الدراسات الاستشراقية حتى الموضوعية منها لم تسلم من تعصب وهوى، والكثير منها كانت تعمل على خدمة نزعات دينية واستعمارية، كما أن هذه الدراسات لا تخلو من هنات وأخطاء لغوية وعلمية وتاريخية مقصودة أو غير مقصودة، فهؤلاء القوم مهما بلغت معرفتهم بلُغتنا فإنه يغيب عنهم روح الشرق وعبقرية ألفاظه وتعابيره التي تؤدي إلى معاني شتى، لذلك نجد استنتاجاتهم فيها الكثير من الأخطاء[43].

ويعتبر بعض المستشرقين يعتبرون محمدا ﷺ نبي العرب بينما معظمهم يعتبرونه شخصية إصلاحية، وقلة منهم ممن دخل في الإسلام.

أما الحاقدون منهم فهم يحاولون النيل من الإسلام قدر المستطاع، فيبحثون عن الثغرات وربما يختلقونها، ويطعنون في أعمدة العقيدة الإسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة، ويعملون على إحياء الأفكار المشوهة والفرق الضالة والثورات والحوادث السيئة التي حدثت في التاريخ الإسلامي، ويدافعون عنها ويعتبرونها معبرة عن آراء إسلامية مبتكرة وأصيلة، وأنها تعرضت للاضطهاد والتشويه من طرف الدول الإسلامية.

الهوامش

(1) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986، ص 142.

(2) محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، 2005، ط8، ص 879.

(3) محمد فتح الله الزيادي: الاستشراق أهدافه ووسائله، دمشق: دار قتيبة، الطبعة 2: 2002م ص17.

(4) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج1، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط4، 2004، ص482.

(5) أخرجه البخاري (رقم 394)، ومسلم (رقم 264)

(6) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير الاستشراق الاستعمار، دار القلم دمشق، ط8، 2000، ص 53.

(7) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 120.

(8) محمد فتح الله الزيادي: المرجع السابق، ص 16-17.

(9) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، القاهرة: نهضة مصر، بدون تاريخ، ص 3.

(10) إدوارد سعيد: المرجع السابق، ص288-286.

(11) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص 15-16.

(12) علي بن إبراهيم النملة: الاستشراق والقرآن الكريم، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد الثالث، السنة الثانية، جانفي 2007، ص -209 210.

(13) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص 21-23.

(14) عبد الرحمان حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص 53 54-.

(15) نفسه: ص 129.

(16) عبد الله محمد الأمين النعيمي: الاستشراف في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997، ص19.

(17) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص 130-131.

(18) ليون روش: ثلاثون سنة في رحاب الإسلام، مذكرات ليون روش في رحلته إلى الحجاز، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر بيروت، 2011، ص -09 14، الأمير عبد القادر: ”حسام الدين لقطع شبه المرتدين“، وثيقة بخط يد الأمير.

(19) صحيح البخاري، رقم 3456.

(20) محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، دار الفكر العربي، بيروت 1993، ص90.
(21) مصطفى السباعي: المرجع السابق، ص 25-33.
(22) نفسه: ص 33-36.
(23) سورة المائدة/82.
(24) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص 28.
(25) عبد الله التل: جذور البلاء، ج1، دار الإرشاد، بيروت، ص 187-203، محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، بيروت 2008، ص 52-54.
(26) محمد حسن جبل: الرد على المستشرق اليهودي جولد زيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية ط2، 2002، جامعة الأزهر، ص 15.
(27) مستشرق ألماني مختص في الفقه الإسلامي يعد الخبير الأول في الشريعة الإسلامية كتب أبحاثاً كثيرة في الفقه وترجم العديد من الكتب العربية وشارك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية، من أهم كتبه كتاب أصول الشريعة المحمدية، ينظر: محمد بهاء الدين، المستشرقون والحديث النبوي، دار النفائس، عمان الأردن، 1999، ص19.
(28) عبد الله التل: المرجع السابق، ص 298.
(29) تيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر وآخرون، دار النشر جورج ألمز، هلدسهايم، زيورخ، ألمانيا، ط4، 2000، ص 7-8.
(30) J.Wansborough: Qur'anic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation، Oxford، 1977، pp. 4245-
(31) ibid. p44
(32) محمد عبد الواحد العسرى: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني من ريموندس لولوس إلى أسين بلاثيوس، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2003، ص122.
(33) علي بن إبراهيم النملة: المرجع السابق، ص 198.
(34) علي بن إبراهيم النملة: المرجع السابق، ص 206.
(35) محمد بهاء الدين: المرجع السابق، ص 19.
(36) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق: 55/ص 332.
(37) مصطفى بن حسني السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي: دمشق - سوريا ط2، 1982، ص 221.
(38) محمد بهاء الدين: المرجع السابق، ص 20- 22.

(39) نفسه: ص34.

(40) إدوارد سعيد: المرجع السابق، ص62.

(41) محمد بهاء الدين: المرجع السابق، ص 31- 32.

(42) عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: المرجع السابق، ص 132-134.

(43) أنور محمود زناتي: معجم افتراءات الغرب على الإسلام، جامعة عين شمس، ص15.

